

الشوري في سيرة الرسول (ص)



► تشكل السيرة النبوية الصيغة التطبيقية، وال المجال العملي للشريعة والقيم التي حملها الرسول إلى الناس في كل حقل من حقول الحياة.. الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، فهو (ص) المبلغ عن الله سبحانه، وهو المطبق للأحكام والمنفذ لها..

لذا فكل سلوكه شريعة، وكل ما يصدر عنه سنة تدبيع، سواء القول أو الفعل أو التقرير.. ثبّت القرآن هذا المبدأ بقوله: (وَمَا أَنْتَ كُمْ الرَّسُولُ فَخُذْ وُهُ وَمَا نَهَاكُمْ فَإِنَّهُوا) (الحشر/ 7).

وقوله: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (الأحزاب/ 21).

من خلال الدراسة والتحليل العلمي للسيرة النبوية في كل مجالاتها وأبعادها نجدها ثروة تشريعية، وهدياً سلوكياً للإنسانية على مدى العصور.. ويزيد مبدأ الشوري في حياة الرسول (ص) السياسية والعسكرية والاجتماعية مبدأ أساسياً من مبادئ تنظيم المجتمع والدولة والأسرة والمؤسسات.. وبعد التشاور واستطلاع الآراء يكون القرار لصاحب القرار، الذي يحول الشوري إلى قرار و موقف بصلاحياته المخول بها..

إنّ الرسول (ص) هو الإنسان الأكمل برأيه وعلمه ووعيه، وهو المسدد بالوحى.. ومع كلّ ذلك فإنّ الله سبحانه قد ثبّت له مبدأ الشوري، وأمره أن يشاور أصحابه، ليدرّبهم على هذا المبدأ، وليبعدهم عن روح الاستبداد والتسلط والفردية، وليري بي فيهم روح الشعور بالمسؤولية، واحترام الرأي الآخر، والتفاهم مع الآخرين، لصنع القرار المتعلق بالمصير الشخصي أو الجماعي..

ثبّت القرآن هذا المبدأ للرسول الكريم (ص) بقوله: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَيَنْهَا لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَّاماً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا زُفْرَةٌ وَمِنْ حَوْلِكَ فَاتَّهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاءَرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران/ 159).

ولقد طبق الرسول (ص) هذا المبدأ في حياته العملية، ليكون هذا التطبيق سنة ومنهجاً في حياة الإنسان المسلم بصورة عامة، وفي مجال السياسة والحقول الالتحاصية بصورة خاصة..

وللمزيد من الاستضاءة بهدي السنة فلنلقط من سيرة الرسول (ص) موقفين فعليين يعبران عن احترام الرأي الآخر، والتنازل عن اقتراحه والأخذ برأي الآخرين.. حدث الموقف الأول في معركة أحد، أما الموقف الثاني فقد حدث في معركة الخندق، معركة الأحزاب، لكي تتصفح لدينا تفاصيل تلك المواقف فلنستمع إلى تقارير المؤرخين وكتاب السير، وهم يتحدّثون عن ذلك:

قال اليعقوبي متحدثاً عن المشاورة التي سبقت معركة أحد: "وكان رأي رسول الله (ص) ألا يخرج من المدينة لرؤيا رآها في منامه: أن في سيفه ثلمة، وأن يغيراً يذبح له، وأنه أدخل يده في درع حصينة، وتأنلها محمد (ص) أن نفراً من أصحابه يقتلون، وأن رجلاً من أهل بيته يصاب، وأن الدرع المدينة، فأشارت عليه الأنصار بالخروج، فلماً لبس لباس الحرب ردد إليه الأنصار الأمر، وقالوا: لا نخرج عن المدينة، فقال: الآن وقد ليست لأمتى، والنبي إذا لبس لأمته لا ينزعها حتى يقاتل أو يفتح عليه، فخرج وخرج المسلمين وعدتهم ألف رجل حتى صاروا إلى أحد، ووافى المشركون فاقتتلوا قتالاً شديداً... [1]."

.. وهكذا يتضح أن رأي رسول الله (ص) هو أن يكون القتال داخل المدينة، لتشتت قوى العدو، ولتوفر الحماية لجيشه داخل المدينة وليسترك مَن يستطيع الاشتراك في إرباك جيش العدو من غير المقاتلين.. وعَدَ هذا الرأي برؤيا تأولها بأنَّ المدينة ستكون هي الدرع الحصينة التي مدَّ يده فيها.. غير أن بعض أصحابه كان يرى القتال خارج المدينة أفضل من القتال داخلها.. ولحكمة ومصلحة لوحدة المقاتلين استجاب الرسول (ص) لرأيه، وخسر المسلمين المعركة..

إنَّ هذا الموقف النبوي دليل فذ على احترام الرأي الآخر، والأخذ به، وممارسة الشورى ممارسة عملية، لتكون منهجاً للMuslimين في حياتهم الاجتماعية والسياسية والعملية، كما هي درس للأخذ بالرأي الأصوب، وإن قابله رأي الأقلية..

ويوم الأحزاب يوم معركة الخندق مارس رسول الله (ص) الشورى السياسية بأجلٍ صورها.. فقد كان رأي رسول الله (ص) أن يتفق مع بعض قادة الجيش المعادي بإعطائهم ثلث ثمار المدينة في ذلك العام على أن ينسحبوا من جبهة القتال، لتخفييف الضغط العسكري الموجه على المدينة، وقد تفاهم مع إثنين من قادة قبيلة غطفان، المراقبة قرب المدينة فوافقاً على ذلك.. ولم يكن رسول الله (ص) وهو الرسول والحاكم ليستبد برأيه، بل شاور أصحابه في ذلك فجذبوا عدم اعطاء أي شيء من ثمار المدينة، وترك الأمور تجري على وضعها العسكري القائم، فاستجاب رسول الله (ص) لرأيه، وترك رأيه..

نقل ابن الأثير لنا تقريراً بتلك الحادثة، فقال: "... فلماً اشتد البلاء بعث رسول الله (ص) إلى عبيدة بن حصن، والحارث بن عوف الري، قائدي غطfan، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعاً بمن معهما عن رسول الله (ص) فأجابا إلى ذلك، فاستشار رسول الله (ص) سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله (ص) شيء تحب أن تصنعه، أم شيء أمرك الله به، أو شيء تصنعه لنا؟ قال: بل [لكم] رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، فأردت أن أكسر عنكم شوكتم، فقال سعد بن معاذ: قد كنتما نحن معهم في الشرك ولا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قبرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام نعطيهم أموالنا؟ ما نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فترك ذلك رسول الله (ص) [2]."

ثم بدأ المعركة وهزمت الأحزاب المجتمعة على حرب رسول الله (ص) بعد أن قتل الإمام علي بن أبي طالب (ع) أبرز أبطالهم عمرو ابن عبد ود..

من خلال تلك المواقف والسبرة العملية للرسول (ص) يتجسد مبدأ الشورى في الإسلام، والتنازل عن رأي القائد لرأي الآخرين.. إنَّه الدرس والعبرة والمنهج السياسي والاجتماعي الذي أراده القرآن والرسول (ص) أن يكون مبدأً دستورياً، ومنهجاً عملياً للحياة، يلتزم بها الحاكم والأمة على حد سواء من خلال الاستشارة الفردية، أو المؤسسات والأجهزة الخاصة للشورى والاستشارة، أو استطلاع رأي الأمة في المجالات التي ينبغي أن يؤخذ فيها رأي الأمة.

[1] - تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 47.

[2] - الكامل في التاريخ، ج 2، ص 181-180.